﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا نفى إيمانَهم؛ بيَّنَ أنَّ ذلك ليس لعدمِ الآياتِ، بل لانتفاءِ الاستعدادِ

إنَّ اللّه تعالى لمّا أخبرَ بسَبْقِ الكلمةِ عليهم، وأنَّهم لا يؤمنون، أتْبعَ ذلك بتأكيدِ ثباتِ كلمتِه، وأنَّ كفرَهم ليس لقصورِ الآياتِ وقلَّتِها، بلْ لرسوخِهم بالكفرِ وتشبُّثِهم به.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المتكبِّرون لا يؤمنون، بأيِّ آيةٍ تدلُّ على الحقِّ وتثبُّته

يُخبر اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ قائلًا له: ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ مِن الآياتِ الكونيَّةِ المُعجزة الخارقةِ، والآياتِ الشَّرعيَّةِ المُنزَّلةِ كالقُرآنِ، فإنَّهم لا يُؤمِنونَ حتَّى يُعاينوا العَذابَ الأليمَ بأعيُنِهم، ويذوقوه حين يَنْزِلُ بهم، فيكونُ إيمانُهم اضطرارًا لا اختيارًا مِنهم، فلا يترتَّبُ عليه عملٌ منهم يُطهِّرُهم، ويُزكّيهم، ويُقال لهم إذْ ذاك: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [يونس: 51][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل بالعطف في السّياق:

من جاءته الآيات، ولم يؤمن، فهو منتكس مرتكس

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فلمّا نفى على وجهِ الاستمرارِ أنَّهم لا يؤمنون عطفَ عليه نفيَ إيمانِهم مع توفُّر الآياتِ؛ بيانًا لغلوِّهم في الكفر وارتكاسِهم به.

دلالةُ (لو) في بيان المبالغة في وصف التعنُّت:

تيئيس من إيمانهم ولو جاءتهم كلُّ الآيات

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾، لمّا نفى عنهم الإيمانَ بكلِّ وجهٍ؛ أتْبع ذلك بتأكيدِ النَّفي بـ (لو)، فهي هنا "وصليَّةٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/290، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/383، رشيد رضا، تفسير المنار: 11/393.

للمبالغةِ، أي: لا يؤمنون، ولو جاءتْهم كلُّ آية، فكيف إذا لم تجئْهم إلّا بعضُ الآيات؟"[1].

وجهُ إضافةِ المجيءِ إليْهم:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ جعل المجيءَ واقعًا عليهم، وأوصلَ الفعلَ بضميرِهم إشارةً إلى تخصيصِ المجيءِ إليهم، وفيه بيانُ قوَّةِ الحُجَّةِ، وأنَّها قد بلغَتْهم، وأنَّهم اختصّوا بها، وهذه تومِئُ إلى أنَّ الحُجَّةَ قد قامت عليهم من حيثُ الاحتجاجُ والتَّبليغُ.

لـن يُـظْـهِـروا الإيـمـانَ، ولـو كـانـت الآيـاتُ قاصدةً لهم

نكتةُ تأنيثِ فعلِ (كلّ) في السّياق:

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ جاء الفعلُ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ بصيغة التَّأنيثِ وهو مسنَدٌ إلى ﴿كُلُّ﴾؛ لأنَّه مضافٌ إلى ﴿ءَايَةٍ﴾ المؤنَّثةِ، فاكتسب منها التَّأنيثَ[2].

مـمّـا يكتسبُ المـضـافُ من المـضـافِ إليـه التَّأنيث

توجيهُ عموميَّةِ (كلّ آية) في السّياق:

في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ استعمل (كلّ) وهي لفظةٌ تدلُّ على عمومِ ما تُضافُ إليه، وهي هنا مستعمَلةٌ في معنى الكثرةِ، كما جرى ذلك في كثيرٍ من المواضعِ في القرآن الكريم، كقولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، والمعنى: ولو جاءتْهم آياتٌ كثيرةٌ، حتّى لو أنَّها استغرقتْ جميعَ الآياتِ المُمْكِنِ مجيئها[3].

مَـن لـم تكفِه أمـارةٌ ليؤمـنَ، لن تكفيَهُ الآياتُ الكثيرة

بيانُ تنكيرِ الآيةِ وإفرادِها:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريم التَّنكيرَ في لفظِ (الآية) للتَّكثيرِ، وهو منضمٌّ بذلك إلى دلالةِ التَّكثيرِ المرادةِ من (كلّ)، فيكونُ تأكيدًا للكثرةِ المفترَضَةِ المرادَةِ من السّياق، وتأكيدًا لرسوخِ الكفرِ فيهم ورسوخِهم فيه.

مـهـمـا كـثُـرَتِ الآياتُ وأبهرت، فـإنَّ رسـوخَ كفرِهم لا يزولُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.
(2) حقّي، روح البيان: 4/81.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.

دلالةُ (حتّى) في سياق الآية الكريمة:

من رأى العذاب؛ فقد فاتته فرصة التاب

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ عبَّر بـ (حتّى) دلالةً على استمرارِهم بكفرِهم وتجدُّدِ انتفاءِ إيمانِهم، ومُكْثِهم في عتوِّهم واستكبارِهم عن اتِّباعِ الآياتِ الَّتي تأتيهم تباعًا حتّى بلغوا مرحلةَ العذابِ، وَرَأوه بأعينِهم فعندها أظهروا إيمانَهم طلبًا للنَّجاة، "أي: حينَ لا ينفعُهم الإيمانُ لفواتِ شرطِه، كما لم ينفعْ فرعونَ لذلك"[1].

التَّعبيرُ عن فعلِ الرّؤيةِ مضارعًا ﴿يَرَوُا۟﴾:

الكافرون العتاة لا يـؤمـنـون بـالـعـذابِ حتّى يَرَوْنَه أمامَهم

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ عن رؤيتِهمُ العذابَ إشارةً إلى تجدُّدِ الرُّؤية ودوامِها، فهم لا يؤمنون إلّا أن يكونَ النَّظرُ منهم إلى العذاب مستمرًّا ليدركوا صدقَ الوعيدِ، وهذا يومئُ إلى شدَّةِ تمسُّكِهم بالمادّيةِ التي لا يؤمنون بما هو أبعدُ منها، فإنَّهم لا يؤمنون حتّى يَشْخُصَ لهم العذابُ المعنويُّ، فيكونَ في عالمِ المادَّةِ، فَيَرَوْنَ أثرَه فيهم.

بلاغةُ الكنايةِ في رؤيةِ العذابِ في السّياق:

رؤيـةُ الـعـذابِ منـجَـزةٌ بـنـزولِه بـهـم، وحـلـولِه فيهم

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ عبَّر النَّظمُ البليغ عن نزولِ العذابِ بهم بالرُّؤيةِ، والعذابُ معنويٌّ فأنّى يُرى؟ فالمرادُ من الرُّؤيةِ الكنايةُ عن "حُلولِه بهم، والمعنى: أنَّهم لا يؤمنون إلّا حينَ لا ينفعُهم الإيمانُ؛ لأنَّ نزولَ العذابِ هو ابتداءُ مجازاتِهم على كفرِهم، وليس بعدَ الشُّروعِ في المجازاةِ عفوٌ"[2].

إيثارُ لفظِ العذابِ دونَ العقابِ:

العذابُ أشدُّ من العقابِ، وأعمُّ

العذابُ يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الشِّدَّةِ، حتى وإنْ لم يُوصَف بالشَّديد أو الأليم، ولذلك استعملَ العذابَ في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ فهو أعمُّ، أمَّا العقابُ؛ فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباطِ العقوبةِ بالذَّنبِ، فإذا عَظُمَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/288.

الذَّنبُ؛ عظُمت العقوبةُ، وإذا صَغُر؛ كان العقابُ على قدرِه، ومن هنا استعمل العقابَ للشَّيءِ والسَّريعُ يكون في الدُّنيا.

فائدةُ وصفِ العذابِ بالأليمِ:

التَّصريحُ بصفةِ الأليمِ، لا ينفي كـون الـرَّحـيـمِ يعذِّبُ الآثمين

في قولِهِ عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ يكفي بالعذابِ ألمًا أن يكونَ من الله تعالى، والتَّصريحُ بما هو معلومٌ في كلامِ البلغاءِ لا بدَّ أن يكونَ لغايةٍ بلاغيةٍ، فكان التَّصريحُ بصفةِ الألمِ هنا للمبالغةِ في بيانِ هذه الصِّفةِ، وللتأكيد للسّامعين بأنَّ العذابَ من الله المتِّصفِ بكونِه الرحمنَ الرحيمَ، متَّصفٌ بكونِه أليمًا، دفعًا لما قد يُتوهَّمُ من المتَّصفِ بالرَّحمةِ أن يمتنعَ عليه التَّعذيبُ الأليمُ.

بلاغةُ الفذْلكةِ في الآياتِ الأربعِ الأخيرةِ:

تـقـريـرٌ لـصـدقِ الـــقـــرآنِ في خـطـابِـه بـروعـة أساليبه وبيانه

الآياتُ الأربعُ من قوله ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: 94] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: 97]" فذْلكةُ هذا السّياقِ الَّذي كان ذِكْرُ قَصَصِ الأنبياءِ شواهدَ فيه، وهي تقريرُ صدقِ القرآنِ في دعوتِه ووعدِه ووعيدِه، وكونِه لا مجالَ للامتراءِ فيه، وبيانُ الدّاعية النفسيَّة للمكذِّبين بآياتِه، وتوجيهُ الاعتبارِ إلى أهلِ مكَّةَ مقرونًا بالإنذارِ، بأسلوبِ التَّعريضِ والتلطُّفِ في العبارةِ، على حدِّ: إيّاكِ أعْني، واسمعي يا جارة"[1].

(1) رضا، تفسير المنار: 11/391.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»